الاخلاق

(تابع ما قبلهُ)

٥

قد اتضح لكم آنفاً ان العوامل الاجتماعية تؤثر في الاخلاق مثلما تؤثر عوامل الاقليم اي الحر والبرد في الحيوان وفي ما هو حيواني في الانسان . بقي علينا ان ننظر خصوصاً في ما يحط الاخلاق وينـدها فنحمد في سبيل المجد والعلى ولا ينشط صاحبها الى نصرة ما فيهِ اقامة حق او ارهاق باطل . ولا يطمح الى مأثرة ولا تسمو الى منقبة همتهُ . بل يغضي على القيم خاملاً وقد رتم المذلة والاستعباد . وان عبداً لعاداتهِ الذميمة لكمثل عبد الحكومة الاثيمة . ففي الغرب كما في الشرق مذاهب وعقائد وتعاليم تذهب بالبأس والمنعة والشجاعة والاباء فتطفئ في المرء نور الضمير . وتحدر منهُ الحس والشعور . وتفقد فيهِ الارادة الا في سبيل الاباطيل والمنكرات . احقاً ان الغاية القصوى من الحياة ان يفلح الانسان في عملهِ مهما كان وكيفما كان ؟ على رسلك ايها المتكالب في سبيل المال العابث بما في الحياة من جوهر الكمال . ان في الحقول وفي الحراج وفي المناجم ما في السماء وفي البحار وفي النفس البشرية من جمال . لا يوزن منهُ التجار ولا يكال . وانت ايها الزعيم زعيم العمال . سمعت اناساً يقولون انك تتاجر بالفقر والفقراء فتسمي غنياً . وانتم ايها الباسلون المؤمنون بمن لا يصدقون بتحذرون فيكم الغرائز ويغرون عليكم الاسياد . والى غاياتهم على بؤسكم يسعون

« وما انخفضوا كي يرفعوكم وانما رأوا خفضكم طول الحياة لهم رفعا »

وسيدي صاحب الدولة والرتب العالية ان دستورهُ « كتاب الامير » رأيناهُ يتخذهُ دستوراً لاعمالهِ واقوالهِ . (« وكتاب الامير » لمكيافلي ايها السادة يعلم الكذب في السياسة والمكر والغدر والسفسطة والرياء)

قال الكردينال ريشليو في وصيتهِ السياسية ان الحاكم لا ينبغي ان يولي صاحب الشرف والوجدان . وفي كتبنا العربية التي تعلم الملوك والسوقة السلوك كثير من هذا . وان نصيحة ريشليو لتذكرني بما قالهُ عمر عند ما عزل زياد بن ابي سفيان قال زياد : لم عزلتني يا امير المؤمنين أعجز ام خيانة ؟ فقال عمر : لم اعزلك لواحدة منهما ولكني كرهت ان احمل فضل عقلك عن الناس

فالشرف والكياسة والذكاء والوجدان عيوب في صاحب السياسة غربياً كان او شرقياً الاَّ اذا استخدمت في المصانعة والكذب والمكر والخداع

على ان الشرقيين قد لا يرون سيف مدنية اوربا غير آفات افضتْ فيها في خطاب لي سبق فينفرون منها بل ينبذون من اجلها المدنية كلها زاعمين انَّ فيها مالا يوافق حالهم وشؤونهم وطباعهم. ولعمري ان ما فسد في تلك المدنية لا يوافق احداً من الناس لا شرقيين ولا غربيين. وفي اوربا واميركا كثيرون من ذوي الرصانة والحصافة نوابغ في العلوم وفي الفنون وفي الآداب يحملون على ما في مدنيتهم من الموبقات والمنكرات. واكثرها آفات ظاهرة تعرف الحكومة كيف تأثرها لتصلحها او لتستأصلها. واما في الشرق فآفات المدنية خفية دقيقة يصعب على العلماء معالجتها ويعجز في سبيلها الحكام. الغربي بما فطر عليهِ من حب الحرية والجهر بالامور يجرأ على عمل قد يكون مخالفاً سنن العدل المصطلح عليها ولا يخفي قصدهُ عن الناس بل يسير اليهِ في رائعة النهار ويعززهُ بحجة عقلية او سياسية. وقد يكون مجرماً مع ذلك او فوضوياً. اما الشرقي فنفسهُ كتاب من الاسرار مختوم لا يعلم منهُ الاَّ ما نقش على الختم — «اللطف. المجاملة. المصانعة. الاستسلام.» — تحدث الشرقي في اجل الامور او في احقرها وتطلق لنفسك العنان في النصح او النقد او التقريع فيهز رأسهُ مؤمناً مجيداً — اي نعم — تمام — الحق معك — هذا صحيح — جيدا والله — ثم يذهب في شأنهِ ثابتاً في خلالهِ

اخواني. في كل اخلاقنا الكريمة الشريفة ما وجدت خلقاً يقارن الجرأة الادبية والحرية الادبية. شعوب وامم تفرقوا مذاهب وهم في حاجة الى التفاهم قبل كل شيء. ومفتاح التفاهم التصريح بمقاصدنا وغاياتنا. التصريح بما تكنهُ اشدتنا عما يختص بشؤوننا الاجتماعية والدينية. اما هذه الحرية السياسية التي ترفع في الجرائد وفي الاندية عقيرتها فليست صافية من شوائب التقية والتعصب والمخاتلة. لم يزل هذا الشرقي شرقياً مسلماً كان او مسيحياً. فيقف مثلاً امام الحاكم مكتفاً مزوراً ويتأدب تأدباً لا يمنعهُ من الغيبة والنميمة عند ما يخرج من الديوان. ويظهر ان سبَّ الحاكم سرًّا خلق قديم من اخلاق الشرقيين. لذلك قيل في الامثال. «ادفع اليهم ما طلبوا من الظلم ولا تنازعهم فيهِ وكف لسانك عن سبهم»

على المرء ان يدفع الحجة بالحجة والظلم بالحق واذا اقتضى الامر فبالتمرد والعصيان. فيكون التمرد اذ ذاك حقاً والعصيان واجباً. عليهِ ان يطالب ابداً بحقوقهِ المهضومة مهما

كانت . فاذا نام عن صغيرها لا يستطيع صيانة كبيرها . ولكن الشرقي لوفرة لديه او لكبر نفسه او لشدة ورعه يُغضي على الضيم ويعود الى الله . وقد يتأوه في سره ويشكو الزمان . والحق يقال ان في الناس حتى في الغرب كثيرين مثل الشرقيين يسكتون ولا يعارضون ما زالت تجارتهم رابحة وما زالوا على شيء من العيش رغد هنيء . ولا بد للتجار اصحاب الذراع والميزان من المجاملة والمكايسة فالحضارة تنبه في الانسان غرائز لا اثر لها في فطرة اهل البادية . وهذا اخلاق العرب . هذا اليأس والمنعة وعزة النفس والمروءة والاباء والشهامة والوفاء . ولكن الاحكام الشرقية والتقاليد الدينية والمذاهب السياسية ذهبت باكثرها

« في كل جيل اباطيل يدان بها فهل تفرّد يوماً بالهدى جيلُ »

ترانا لا نأتي عملاً لا يكون منصوصاً عليه في كتب الدين . ولا نخطو خطوة لم يخطها قبلنا اجدادنا . ولا نقول في مشاكل الحياة قولاً لا نستطيع اسناده او اسناد مثله الى احد الائمة الكبار . ولا يمسّنا ضر او خير الا مشيئة الله تعالى . فنتوه في جهلنا قائلين : انا لله ! ونتربع على بساط المذلة صارخين : انا لله ! ونركب مطية الجبن والعجز متأوهين : انا لله ! وتحل بنا سبع ضربات مصر فنصرخ مبتهلين : والحمد لله والشكر لله !! جميل هذا التناهي في الورع والتقوى . جميل هذا الصبر والاستسلام . ولكن اما في المغرب اراحوا الله من صراخهم وشكواهم فانطلقوا . صادقي . خلق الله الطير ليطير بجناحيه لا ليتمرغ بهما في اوحال اليأس ويكسرهما على صخرة الايمان . وجناح النفس والعقل في الشرقي لم يزل والحمد لله سليماً ولكنهُ مكبل مقيد . قيدتهُ القناعة والاستسلام . قيدتهُ عقيدة القضاء والقدر . قيدتهُ الاحكام الظالمة . قيدتهُ السيادة الدينية المطلقة . قيدتهُ الطاعة العمياء . قيدتهُ التقاليد والخرافات . بل قيدتهُ المرأة في قيودها . حلوا قيود المرأة الشرقية فتحل قيود الشرق كلها تدريجاً

ومن غريب مجايا الشرائع والاحكام انها تحرر جيلاً من الناس وتستعبد آخر . كانت عقيدة القضاء والقدر قديماً من اكبر عوامل النصر في الاسلام وهي اليوم من اكبر العوامل في تأخر المسلمين . والشريعة التي حررت المرأة من احكام الجاهلية وعاداتها جعلها بعض ايمتها اليوم نيراً على المرأة لا يطاق . الشريعة التي تقبلها امرأة العصر الخامس لا تقبلها امرأة العصر العشرين . والتي تقبلها امرأة اليوم قد ترفضها امرأة الغد . وهذا هو ناموس الترقي الحي الدائم الذي يخدع المشرع والمصلح والحكيم . ومن الادب والسياسة انما هي من عقل الانسان وانما هي التي ابقت عقل الانسان في قيود الجهل والعبودية زمناً طويلاً . على المرء اذاً ان يكون

منيقظاً عاملاً ناشطاً مفكراً فلا يقبل اليوم من الشرائع التي سُنت لاجدادهِ مالا يوافق حالهُ ولا يساعدهُ في ترقية نفسهِ وعقلهِ بل في ترقية قواهُ الحيوية والروحية كلها . عليهِ الاَّ يكون ممن

« عاشوا كما عاش آباءٌ لهم سلفوا واورثوا الدين تقليداً كما وجدوا »
« فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ولا يبالون من غيٍّ لمن سجدوا »

ومن سعى سعياً جميلاً في تكييف الاحوال لتوافق نزعات النفس السامية وتحقيق آمال الفكر العالية كان من الصالحين المقربين من الآلهة . وما يعترضنا في طلب الحقيقة وفي تعشق صورة الكمال من جهل وتعصب وتقاليد وخرافات فمن الشيطان لا من الله . وعلينا ان نناهضها لنذللها ونستأصلها تماماً

قال إمرسون : « النفس الخالدة هي التي ترى الخلود في كل شيء وتساعد في تكوين العالم » . وفي النفس مرآة الهيَّة تنعكس فيها صورة الكمال . وكل فكر جميل يصقلها وكل فكر خبيث يشوهها . علينا اذا ان نهجر امالنا السيئة وآمالنا الباطلة ونزدريها اذا اعترضت الفكر الجميل في سيرهِ وسعيهِ وجدهِ . ان ارادة الانسان اذا ادركها ووثقها لعظيمة . ومتى بدأ يقول « علي ان افعل اذن لي ان افعل » كما قال الفيلسوف كنت ويقرن بالعمل قولهُ يتدرَّج الى السيادة المطلقة في عالك الحيوان والنبات والاثير وفي ما فوقها للنفس من ملك لا يحد

ولكل منا دائرة اجتماعية صغيرة يستطيع ان ينير فيها مصباح الفكر والحب والارادة . ولكل منا سلسلة حوادث يتألف منها المهم في حياتنا الاصطلاحية فيستطيع ان يكيفها لتوافق ما منها من افكارنا وما سلم ورق من شعورنا . هذا اذا كانت لنا ثقة بانفسنا فنعزز بالعمل الارادة فينا

ولا بد من سقوط كل عقيدة من شأنها ان تبقي الانسان في ضعفهِ وجهلهِ وخمولهِ . ولا بد من اضمحلال مذاهب وتعاليم ركنها الاول من الوهم والخرافة . ولا بد من نسخ كل شريعة لا يقرها العقل ولا يخضع لها الضمير . وما نهض بالاوروبيين من مهامهِ الجهل والمسيحية والاستعباد غير تحررهم من خزعبلات السياسة والاحكام من قيود الخرافات والاوهام

في جزيرة جاوى نوع من الشجر لا ينمو في ظلهِ نبت ولا يعيش حيوان . شجرة في جذعها واغصانها سم يسم تربتها وظلالها فتراها وما حولها من الارض الجدباء كانها واحة

في قلب البادية . هذه لعمري شجرة الخرافة تزرع في النفس فتسم الفضائل والاخلاق . وتمتد ظلالها الى العقل والى القلب فتفسد فيهما الفكر والشعور . شجرة جذعها من الخوف وسمها من الجهل واغصانها من الاوهام وثمارها وان كانت كبيرة جميلة فكتفاح سدوم قلبها رماد وكبريت . متى يتقلص ظلك في الشرق ايتها الشجرة السامة المهلكة . متى يستأصلك العلم من انفس الشرقيين . ومتى يُطرد الذين يرعونك بالتربية ويتاجرون بسمك وثمارك ؟

« تكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى باكرام وتصديق »

اولئك الذين يتاجرون بتفاح سدوم يفسدون في الناس عقيدة الايمان الحقة . الايمان سر القوى البشرية من عقلية وروحية وادبية . الايمان الحي الصادق يحرك صاحبهُ الى المفاداة بالنفس والنفيس في سبيل الحق والشرف والعدل والحب والمجد والعلى . وفي سبيل العلوم التي تحبب هذه الفضائل الى الناس . وفي سبيل الفنون التي تحيي فيها صورة الكمال . قديماً كان النبي الكاتب الشاعر في الناس . وما كان ليتهيب الموت اذا اعترضهُ في سبيلهِ . فيسجل كلمتهُ على اعداء الحق بل اعداء الله ولسان حالهِ يقول على الدنيا السلام . فاين شبه الانبياء في ادباء هذا الزمان وشعرائهِ . تراهم يتزلفون الى ذوي السيادة و يصانعون صوناً لصلحة او جرّاً لمغنم . اما الايمان فميت في صدورهم . فالأديب الذي يفادي بسعادتهِ سبيل ادبهِ . والسياسي الذي يفادي بمنصبهِ في سبيل وطنهِ . والعالم الذي يفادي بحياتهِ في سبيل علمهِ . ان هؤلاء ادوا عدوا من الكافرين لمن اجمل الناس ورعاً واصحهم اعتقاداً واصدقهم ديناً . ذلك لان ايمانهم بالله وبالخير بما في النفس البشرية من القوى الالهية الكامنة لحي صادق مجيد . اتجد الله يا هذا . كن عادلاً محباً منصفاً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر عاملاً في تحقيق امل واحد من آمال النفس السامية . فانت في اقتدائك بالمقربين منهُ تعالى تمجيداً كافياً لاسمهِ

٦

عقائد في الشرق واضاليل تفسد العقول والاخلاق فما الذي يصلحها ؟ لا اقول قول متشكيو ان على الحاكم ان يستخدم القانون لينبّه من اذهانهم الدين او بالحري الاعتقادات الدينية الباطلة التي تعزو الاشياء كبيرها وصغيرها الى قضاء لا يرد فالعقائد الفاسدة لا تزيلها غير العقائد السليمة . والقانون لا يجرأ على اقتلاع شجرة الخرافة من اصولها لان ذوي المصلحة الذين يتاجرون بسمها وثمارها كثيرون . فالعلم الصحيح وحدهُ ينبه من خدرتهُ التقاليد

والخرافات . وينعش منهُ النفس والجسد . اما القوانين والاحكام فتعجز عن اصلاح ما افسدتهُ من الاخلاق

ان عصرنا لهو عصر البحث والنقض والتمحيص . واذا كانت لا تسود هذه الروح روح الزمان الراقية في آدابنا وديانتنا وسياساتنا واجتماعياتنا لا تصطلح اخلاقنا ابداً ولا تفك قيود العقل والنفس فينا

في كل الفلسفات الادبية القديمة والحديثة ما وجدت اصلح من فلسفة الرواقيين واسمى . منشئها زينون اليوناني . فان فيها من المشبهات العقلية والمقويات الروحية ما لا نجدهُ صافياً في الحقائق التي نلقنها اليوم . فلسفة الرواقيين تعلمنا الواجب الذي لا يتعدى العمل به اللازم المفيد . وتعلمنا الصبر على الشدائد وعظم الهمة . وتعلمنا ان لنظر الى السرور والحزن بعين هادئة وقلب مطمئن . وتشدد العزيمة فينا فتحصن النفس من طوارئ الدهر وتعدها لنوائب الزمان . وتحبب الينا الفضيلة حباً بها لا حباً بجنات تجري من تحتها الانهار . لمذهب الفيلسوف زينون الفضل الاكبر في عظمة رومية وبأس ابنائها . بل هو مهد رجالها العظام من قادة وسياسيين وفلاسفة وقياصرة . لو حكم عليَّ بالتمذهب لما اخترت غير الرواقية مذهباً

لا انكر ان ماضي الشرق غنيٌّ بالشرائع العظام . بالذين تفردوا ذكاء وروحاً واخلاقاً فنظموا الشعر واشترعوا الشرائع ووضعوا التعاليم فكانوا اعلاماً يهتدي الناس بها . ولكن المعلمين مشبوهون مرشدون . والانبياء الى الطرق القويمة هادون . على ان « الانسان لم يُخلق ليقاد بالزمام » بل فطر على ان يهتدي بمصابيح العلم والحرية . فالعلم ينير الحوادث ودلائلها والحرية تمكنهُ من الاستفادة بها فكراً وعملاً

ان في كل قوم حكمة ولكل زمان سياسة وفي كل حال تدبيراً يبطل الاخير منها السابق لها . ان تعاليم كنفوشيوس السياسية تفاير الشرائع الدستورية التي تأسست عليها اليوم جمهورية الصين . وفلسفة برذا الاجتماعية تتقوض في ظل الاحكام الانكليزية

وفي الشرقيين من ادركوا هذا من عظم خلقهم وكبر قصدهم وبعد همتهم . واننا لنرى شيئاً من هذا الادراك السامي حتى في المتفردين بالتوحش من الفاتحين . رجل رجلاهُ في الدم وفي رأسهِ شيء من السماء نظر الى السماء وقال : اذا كان الله في كل مكان لم لا نعبدهُ في اي مكان كان . فني اشواك نفس جنكزخان الذي هدم الجوامع واعتنق الاسلام وردة جميلة من ورد الحقيقة السامية . وان كلمةً لتذكرني بما اخبرناهُ القديس اوغسطينوس عن العالم الوثني الشهير في زمان قكتورنيوس فانهُ اخبر احد اصحابهِ يوماً انهُ اهتدى الى الدين

المسيحي فقال صاحبهُ لا اصدق حتى اراك في الكنيسة . فقال فكتورتيوس وهل الجدران تجعل المرء مسيحيًا . الحقيقة تتجلى في الاحايين للبريء تجليها للفيلسوف

واننا لنجد في الشرق اليوم في اي مدينة كانت اناسًا تسامَوا عقلاً وخلقًا ولكن خاصة اخلاقهم لازمة غير متعدية

بين ان الغريبين اذا سمت اخلاقهم يحمت منهم العزيمة ويعدُ القصد فيعملون بما اوتوا من المواهب لخير الناس . واننا لنرى هذا الفرق في حكمتنا وحكمتهم كما قلت . وازيدكم من ذلك مثالاً . جاء في بعض الكتب ان الرجل الفاضل الرشيد لا ينبغي ان يُرى الاَّ في مكانين اما مع الملوك مكرمًا واما مع النساك متعبدًا . هذه حكمة الشرق . انما الفاضل الرشيد من لا يُرَى لا مع الملوك مكرمًا ولا مع النساك متعبدًا بل في معمعان الحياة عاملاً . هذه حكمة الغرب . فالزهد والانقطاع عن الدنيا كالاخلاد الى نعيم العيش كلاهما يورث الخمول والخبال . واذا سمت عزائمُ فلا يرتبي في صاحبها غير الفضائل السنية . وها كم قصة تمثل ما اريد

التقيت مرة في الطريق على شاطئ البحر بدرويش اسمهُ الشيخ عبدالله وهو من السالكين طريقتهُ مولوية . فاخبرني انهُ ومعه الى سوريا منذ خمسة عشر يومًا قادمًا من الحجاز ماشيًا ولقي في الطريق خمس عشرة سنة . واخبرني انهُ جاء سوريا ليزور فيها قبر احد الاولياء في نواحي طرابلس

« تركتَ ضياء الشمس يهديك نورها وتبعت في الظلماء لمحة بارقِ »

على انهُ بان لي بعد ان حدثتهُ في طريقتهِ واحوالهِ — ولي نزعة الى استطلاع اخبار هؤلاء الدراويش — ان الحاج عبدالله على شيء من العلم وانهُ في سلوكهِ وفتوتهِ لمن الصادقين . ولم يطلب مثل اكثر اخوانهِ صدقة لوجه الله . ولكنني عند مصافحتي اياهُ مودعًا وضعت في يدهِ قطعة من نحاس هذه الدولة فقبلها شاكرًا . وسرت في طريقي اتأمل من جاء ماشيًا من الحجاز — وقضى خمس عشرة سنة في الطريق — ليزور قبر ولي من الاولياء

« أرسلت غربك تبغي الماء مجتهداً وما علا الغرب لما خانك المرس »

وكنت وصديق لي نقصد يومئذٍ عمشيت لنزور فيها قبر ولية من وليات البر والحجى هي هنريت رنان اخت الفيلسوف الافرنسي الشهير . فكنا والحاج عبدالله صوبين من هذا القبيل لكلانا مزار تحركنا اليهِ عاطفة الورع والتقوى . ولكن هذا غير ما اجفي من القصة . في اليوم الثاني ونحن عائدون الى بيروت — وكانت السماء يومئذٍ ماطرة — تراءى لنا خيال اسود على حجر الى جانب الطريق فاقتربنا منهُ واذا بهِ الحاج عبدالله يستريح تحت المطر من

عناء السفر — وهؤلاء الدراويش لا يخافون الزوابع والرياح — فحدثتهُ ثانية وقدم اليهِ رفيقي شيئاً من المال — وهذه النكتة — فرفضهُ قائلاً : « لم يزل معي والحمد لله مما تفضلتم بهِ البارحة » . القناعة كنز لا يفنى ولكنهُ كنز لا يحمّر البلاد

خُلق الحاج عبدالله ما يسمونهُ في لغة المتصوفين خلقاً عظيماً لانهُ اعرض عن العالم واقبل بكليتهِ على الله تعالى . ولا اظنكم تجهلون ما في هذه الطريقة طريقة السالكين والسالك من تعطيل الحواس الظاهرة والكفران بالذات . وان السالك ليقتل ارادتهُ ويخلد الى السكون الذي يولّد الخمول والكسل . وفي الهند عند البراهمة غرائب من اساليب الكسل والخمول . عقيدة البوذي مثل عقيدة المتصوفين في نتائجها وفي بعض اصولها . والغاية القصوى منها اتحاد المرء والمبدإ الاولي الدائم مبدإ اللاشيء اي العدم الازلي . فالبوذي يغمض طرفهُ ويقول : انني جزء من هذا اللاشيء الازلي لا نهاية لهُ . وفي قتلي الارادة واستئصالي الرغائب والآمال الدنيوية من صدري افوز على النفس فيتم اتحادي بالظلمة الازلية الابدية . وهي تدعى عندهم « نرفانا » والمتصوف يدعوها جمع الجمع اي العزة الالهية واذا سئل البوذي ما هي « نرفانا » . اجاب : اني حين اغمض طرفي واعود الى نفسي مردداً أم أم اظفر بها . أم أم ! — الله الله ! قد يُسعد النسك صاحبهُ ولكنهُ يخرب العالم

مثل هذه العقائد اصولها في اوحال العادات والخرافات وفروعها في سماء النظريات والاوهام لا تربي في المرء اخلاقاً سامية مجيدة . يتعدى خيرها ولا يلازم صاحبها وينحصر فيهِ . ومن سخيف تقاليدها مثلاً ما نراهُ منبئاً عن البراهمة فعلى البرهمي الاّ ينظر الى الشمس عند شروقها وغروبها . ولا يطأ حبلاً رُبطت بهِ بقرة ولا ينظر الى امرأتهِ حين تأكل او تعطس او تتثاءب . ولا يلبس لطعام الظهر غير ثوب واحد . ولا يستحم عريانًا . وغيرها من آداب السلوك المستغربة المضحكة . حتى انهُ في ازالة الضرورة نراهُ مقيداً بخرافات بوذية . فقد حُظر على البرهمي ان يزيل ضرورة على الرماد او في حقل مفلوح او على ربوة خضراء او على وكر نمل ابيض . وغير هذه من الاوهام التي ينزلونها منزلة النواميس الطبيعية بل الالهية . وهم مع ذلك اصحاب نحلة وكرامة محترمون في قومهم موقّرون فلا غرو اذا كانوا متقاعدين متخاذلين خاملين لا يعملون عملاً مفيداً . الجلالة والوقار والكسل قلما ينفصل بعضها عن بعض . وكل امة يغلب في شعبها وهم الالوهية والجلالة . تستنيم الى الضعة . ويحتمل منها الخس . ويكثر فيها الكسل

هؤلاء نساك الروح رهبان الشرق براهمة ومتصوفون يهربون من الحياة ويزدرونها .

اما نساك العقل فاليكم خبرهم . في المغرب اليوم عصبة الفلاسفة المتفردين الذين يعرفون الاحكام ولكنهم لا يقرونها ولا يتعرضون لها مباشرة . يعيشون في عقولهم بعيدين عن ضجيج المدن والناس مستقلين مطمئنين لا يتطلبون شهرة ولا مجداً . يعيشون على الفطرة الاولى من الوجهة الجسدية وعلى ارفع ما اتصلت اليه العلوم والحكمة من الوجهة العقلية والروحية والمعنوية . ترى احدهم بدوياً في غرائزه وطباعه حضرياً في مزاجه واخلاقه . اميراً وفلاحاً في وقت واحد . وكثيرون من هؤلاء في الولايات المتحدة في البر لا في المدن . يعيشون في عزلة عن الناس كل في دائرته كالنجوم في حبكها وتشع انفسهم اشعة الالفة الحقيقية التي تربط كل دائرة باختها . ولكل منهم مهنتان مهنة معاوية نكية قوامها الآية : « على الارض السلام وبالناس المسرة » ومهنة دنيوية زراعية قوامها الفكر والعمل . فيحرث احدهم الارض ويربي المواشي « ويقطر عربة افكاره بالكواكب السيارة كما قال امرسون »

وقد زرت احد هؤلاء الكبار مرة في بيته فلقيته عند وصولي قدام باب الاصطبل حاملاً جراب قمح يطعم منه الدجاج . وبعد ايام دعيت الى مأدبة في المدينة جمعت من رجال العلم والادب اشهرهم هناك وكان صديقي هذا رئيسها وقطب دائرتها . فتأملوا هؤلاء النساك نساك العقل . نساك الفلسفة . لا يتكفون عن العمل المفيد مهما كان زرياً ولا تأخذهم اوهام الابهة وخزعبلات الوقار والجلالة . وقد لا تعجبكم اخلاقهم او بالحري سلوكهم . فهم لا يحفلون بما تُقتناهُ في الشرق من المجاملة والمصانعة في الضيافة . ولا يحسنون من اللطف الشرقي الالف باء . ولكن صدقاً في اقوالهم . وحرية في اعمالهم . وجرأة في حريتهم . تقربهم الى الفطرة البشرية الاولى التي لا تعرف التهر والضغط فيسترسلون مع الطباع ولكنهم يستعملون في ذلك الفكرة والتمييز . والفطرة الاولى اقرب الى الخير على ما فيها من غلاظة وسماجة لبعدها عما يتطبع في نفوس اهل المدن من سوء الملكات وقبيح العادات وفاسد الاصطلاحات . وهذا ما يحمل ذوي الالباب والحصافة اليوم الى السكنى في القرى او التنسك في البرية

ذلك مبلغ نساك العلم والادب . وتلكم طريقتهم النسكية الفلسفية . ناسك الروح يعطل الحواس منه لوهم فيه ان ذلك يقربهُ من ربه . وناسك العقل يهذبها ويرعاها ابداً بالتربية ليقترب من نفسه فيعرفها . شعارهُ بساطة العيش مع سمو الادب . فيقرن لذة الحراثة بلذة التأمل ولذة التأمل بلذة العمل . ناسك الروح يبعد عن الناس ليقترب من الله . وناسك العقل يعتزل الناس ليقترب من الناس فيعيش طبق فلسفته وبموجب علمه فيصير

اهلاً لان يخدم الناس وينفعهم . فما قولكم بالناسكين ناسكنا وناسكهم واي منهما اقرب الى الله

وهاكم مثالاً آخر من اخلاقنا الكريمة التي قلما تفيد . في لبنان بكثر الشحاذون ومنهم نساء من العرب يستعطين ليعيشن اولادهن ورجالهن ! ومن هؤلاء الباشات بدويتان استوقفتاني يوماً فادهشني امرهما . بعد ان جاءتهما الخادمة بشيء من الدقيق جلستا على الدرج قدام الباب وفتحت كل جرابها . فاخذت البدوية الصغيرة واسمها حسنى تفرغ من جرابها الملآن في جراب رفيقتها الفارغ . فسألتها السبب في ذلك . فقالت : هي غرتي ياسيدي ورجلنا يؤثرني عليها ويضربها ضرباً اليماً اذا عادت المساء وجرابها فارغ فاشاطرها ما معي لارد عنها الضرب . فعجبت لكرم اخلاقها ولكني اسفت لما رأيت عليه من الذلة والاستكانة والاستسلام . فهي لا تستطيع ردع زوجها المتوحش الا بهذه الحيلة الجميلة . ولو حاولت ردعه ساعة غيظه لضربها ايضاً . هذا شهامة مقرونة بالقوة والعصيان . لم الضع يلزم له اسنان الكلب . وانه ليحق لمثل هذه المرأة ان تهجر زوجها وتبارکها الله لو فعلت

وهاكم قصة اخرى تمثل ما اريده بالاخلاق اللازمة والمتعدية . مر اعرابي بعجوز فطلب منها طعاماً . فجاءته ببيض حيات مشوية وبكوز من الماء الملح فاستغرب ذلك وسألها السبب . فقالت هذا كل ما عندنا في هذا الوادي . فتعجب الاعرابي وسأل العجوز كيف تقيم هناك تأكل الحيات وتشرب الماء الملح . فقالت وكيف تكون بلادكم . فوصف لها بلاداً فيها دور رحبة واسعة وثمار يانعة لذيذة ومياه غزيرة عذبة . فقالت العجوز : وهل يكون لكم من سلطان يحكم عليكم ويجور في حكمه . فقال الاعرابي : قد يكون ذلك . فقالت آكلة الحيات : اذاً والله يكون ذلك الطعام اللطيف والعيش الظريف مع الجور والظلم سماً ناقعاً وتعود اطعمتنا مع الامن دريئاً نافعاً . حكمة العجوز بليغة وجميل إباه نفسها . ولكن ذلك لا يردع السلطان عن غيه ولا يكبحه عن جوره وظلمه

اجل ان شهامة البدوية حسنى وقناعة الحاج عبد الله وعزة نفس العجوز آكلة الحيات لفضائل كلها جميلة ولكنها سلبية ملازمة . شريعة اخلاقهم روحية . ولكن شيئاً كهربائياً ليتقصها . مثل هذه الاخلاق في الشرقي لا تؤهله لمناهضة الظلم والظالمين لانها غير مقرونة بادراك النفس ما لها من الحقوق وما عليها . وقد يصح ان نقول ان في مثل هذه الاخلاق الشريفة نوراً وليس فيها دم . الشرقي يهرب من الظلم معتصماً بالله — « لا تجعل صلاحك على من ظلمك الدعاء عليه ولكن الثقة بالله » . فالهرب الى البرية من الظالم جبانة .

والهرب الى الله من الحياة كفران بالحياة وبارئها . نفس الحاج عبد الله جميلة ولكنها ضالة . ونفس العجوز أبية ولكنها مستسلمة . ونفس حسنى البدوية كريمة ولكنها خامدة خاملة . فحياتها لا تزيل شراسة الخلق في زوجها . وكان ينبغي لها ان تنفق وضرتها لتهجرا مثل هذا البربري . فان خفاشاً في كهف خير منهُ

اقول وحقاً ما اقول ان الشرقي يظل شرقياً قاعد الهمة . عاجز الرأي . خامد الطباع . متخاذلاً مستسلماً . قانعاً من زمانهِ بالغصة والذل . اذا كان لا ينفض عن نفسهِ غبار السنين من الكسل والخمول ولا يكسر قيوداً من التقاليد والخرافات والعادات فيدت منهُ العقل والنفس والجسد

الانسان الذي خلقهُ الله على صورتهِ تعالى ومثالهِ اذا تقيد في كل اعمالهِ وافعالهِ وافكارهِ لا يبقى فيهِ شيء من صنعة الله حر جميل . الفكر انهضوا بهِ من قبور التقاليد . النفس حرروها من خزعبلات الاوهام . الجامعة ارفعوها على الحكومة والحكام . الاخلاق روضوها للعمل المفيد . ان اخلاقنا الروحية لرأس مال كبير في حياتنا الجديدة علينا اذاً ان نستخدمهُ لخيرنا وخير الشرق بل لخير الناس اجمعين . وان من لا يرجو من هذه الحياة خيراً هو غالباً ممن لا يستأهلون الخير ولا ينالونهُ . كلمات اليأس لا يزيل ترددها اليأس . التأوه والانين لا يصلحان الشؤون بل يوهنان القوى ويورثان الخبال . لنعوّد انفسنا ترداد كلمات الامل والرجاء . فانها وان كانت مبنية على وهم مستحب او فكرة طائشة لتعودنا في الاقل العمل . وتوقظ فينا النشاط . وتشحذ منا الارادة . ان املاً اردده في نفسي كل يوم لا يلبث ان يملكها فيدفعني الى العمل لتحقيقهِ . المريض لا يشفيهِ الانين . والشقوة لا يزيلها الاستسلام الى الاقدار . لنبرهن خطتنا في امور الدنيا والآخرة على عقلنا . ولنبرهن قوتنا على خطتنا . ولنبرهن اعمالنا على هذه القوة فينا . وحبذا الشرقيون والغربيون لو اخذ بعضهم عن بعض مما هو جميل في اديانهم صحيح في آدابهم . سامٍ في فنونهم . سليم في عاداتهم . سديد في عقائدهم . عادل في احكامهم وشرائعهم . فالحق يقال ان خلاصة آداب الشرق والغرب بل خيرها في الاثنين ممزوجاً موحداً انما هو الدواء الوحيد لامراض هذا الزمان الاجتماعية والدينية . فالغربي عندئذٍ يعود الى الله والشرقي يرفع عنهُ بعض اثقالهِ

امين الريحاني